

## فلاسفة الإسلام وطريق الحرير

### ■ عبد الرحمن السالمي

**ف** فرغانة وبخارى، وسمرقند، وخوارزم، وخيوه، وأصفهان، وطوس، والري ومرو: هذه بعض من المدن الواقعة على طريق الحرير والتي صنعت الفلسفة الإسلامية، ولم تصنعها - في الحقيقة - بغدادُ عاصمة الخلافة كما يُعتقد ذلك عادةً إلا في حدودٍ دنيا؛ فأبو نصر الفارابي (من فرارود في وسط آسيا اليوم وتقابل أوزبكستان وطاجيكستان)، وأبو زيد البلخي [من بلخ]، وأبو الحسن العامري [من خراسان]، وأبو سليمان السجستاني المنطقي [من سجستان]، وأبو بكر القومشي [من قومشة نواحي أصفهان]، وأبو الريحان البيروني [من خراسان]، وابن سينا [من همذان]... والراغب الأصفهاني [من أصفهان]، والملا صدرا الشيرازي [من شيراز]، وغيرهم بالعشرات: هؤلاء هم فلاسفة طريق الحرير الذين صنعوا الفلسفة الإسلامية، وليس كما يُعتقد أن صانعها هم فلاسفة دمشق وبغداد بالأولى والأحرى والأجدر.

كان لطريق الحرير مَسْلُكَان؛ إذ كان يمتد طريق الحرير من المراكز التجارية في شمال الصين ثم ينقسم إلى فرعين: شمالي



وجنوبي. يمرّ الفرع الشمالي من منطقة بلغار - كيبتشاك وعبر شرق أوروبا وشبه جزيرة القرم، وحتى البحر الأسود وبحر مرمرة والبلقان ووصولاً إلى البندقية. أمّا الفرع الجنوبي فيمرّ من تركستان وخراسان وعبر بلاد ما بين النهرين والعراق والأناضول وسوريا عبر تدمر وأنطاكية إلى البحر الأبيض المتوسط، أو عبر دمشق وبلاد الشام إلى مصر وشمال أفريقيا.

وقد انتمى فلاسفة الإسلام بالخصوص إلى طريق الحرير الجنوبي؛ منهم من كان ينتمي إلى تركستان وطاجيكستان، ومنهم من كان ينتمي إلى بلاد ما وراء النهرين وبلاد فارس، ومنهم من كان ينتمي إلى أنطاكية وغيرها من البلاد التركية.

ذلك أنه قلما وجدنا فيلسوفاً عربياً قحاً، باستثناء حفنة يد من الفلاسفة؛ إذ أغلب فلاسفة الإسلام كانت مواطنهم على طريق الحرير، فلربما باستثناء الكندي الذي يقول عنه صاحب «صوان الحكمة» أبو سليمان السجستاني المنطقي: «هو أول من تخرّج من المسلمين في الفلسفة وسائر أجزائها»، والذي عادة ما يكنى بكنية «فيلسوف العرب»، ونحو أبي عثمان بن يعقوب الدمشقي، ويحيى بن عدي البغدادي، وأبي علي بن زرعة البغدادي، وأبي سليمان المقدسي، وابن كمونة البغدادي، فإننا نجد أول فيلسوف تخرج على يد أول فيلسوف عربي هو أبا الطيب السرخسي من سرخس؛ وهي مدينة ومركز في محافظة خراسان رضوي (إيران)، وكانت سرخس هذه محطةً على طريق الحرير؛ فكان بذلك فيلسوفاً من فلاسفة طريق الحرير.

فغالبية فلاسفة الإسلام كانوا ممن انحدروا أو استوطنوا مدن طريق الحرير؛ شأن أبي نصر الفارابي، وأبي زيد البلخي، وأبي الحسن العامري [خراسان]، وأبي سليمان السجستاني المنطقي [من سجستان]، وأبي بكر القومشي [من قومشة نواحي إصفهان]، وأبي الريحان البيروني وابن سينا وتلامذته مثل أبي عبيدة الجوزجاني (من أفغانستان) وأبي الحسن بهمنيار بن المرزبان (الأذربيجاني) وغيرهم كثير.

ولم يقتصر الأمر على الفلسفة بمعناها الخاص؛ وإنما شمل نوعين آخرين من الفلسفة الممزوجة: الفلسفة الكلامية والفلسفة الصوفية. فعلى مستوى الكلام الفلسفي نجد مثلاً أبا زيد البلخي شيخ المدرسة البغدادية المعتزلية، وقاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمداني شيخ المعتزلة البصرية البهشمية، وأبا منصور الماتريدي إمام الماتريدية، وشيوخ الأشاعرة المتكلمين عبد الملك الجويني، وأبا حامد الغزالي من طوس، وفخر الدين الرازي [من الري]، وعضد الدين الإيجي [وُلد بإيج من نواحي شيراز]، وأثير الدين الأبهري [نسبة إلى أبهر، وهي مدينة فارسية قديمة بين قزوین وزنجان]، وعبد الرزاق

انتمى فلاسفة الإسلام إلى طريق الحرير الجنوبي؛ منهم من كان ينتمي إلى تركستان وطاجيكستان، ومنهم من كان ينتمي إلى بلاد ما وراء النهرين وبلاد فارس، ومنهم من كان ينتمي إلى أنطاكية وغيرها من البلاد التركية.

اللاهيجي [نسبته إلى لاهيجان من أعمال غيلان]، وجلال الدين الدواني [وُلد في دوان (من بلاد كازرون) وسكن شيراز] وغيرهم بالعشرات. وعلى مستوى التصوف الفلسفي نجد شهاب الدين السهروردي [من سهرورد بفارس]، والفيض القاشاني [قاشان]، وغيرهم بالعشرات.

ومن المفكرين والكتّاب العرب من نسب إلى صناعة الحرير فتسمى الحريري، منهم الأديب الحريري صاحب المقامات، والشاهد الحريري الذي ذكره أبو حيان التوحيدي في

كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، حين تحدث عن مفهوم «الطرب» للموسيقى في الثقافة العربية الإسلامية، فقال عنه بأنه «ولا طرب الحريريّ الشاهد على حلية جارية أبي عائذ الكرخي».

كما نسب إلى «القرز» كثيرون؛ إذ ذكر ياقوت الحموي في كتابه المسمى: «الخرزل والبدال بين الدور والدارات والديرة» [ج1، ص7].

«وفي دار القز يعمل الكاغد اليوم. وينسب إلى دار القز أبو حفص عمر بن محمد بن المعمر بن أحمد بن يحيى بن حسّان بن طبرزد المؤدب الدارقزي. سمع كثيراً بإفادة أبي البقاء محمد بن محمد، وعُمّر حتى روى ما سمعه، وحمل



من بغداد إلى دمشق، فسمع عليه خلقٌ كثير، وعرف أنه ينفرد بكثير من الكتب مما لم يعرف إلا عنه. عاد إلى بغداد، ومات فيها سنة سبعٍ وستمئة، وُدُنَّ بباب حرب، وكان مولده كما أخبر في ذي الحجة من سنة ست عشرة وخمسمائة رَضِيَ اللهُ. ويُنسب إلى دار القز أيضاً أبو نصر عبد المحسن بن غنيمة الدارقزي.

## النزاع بين فلاسفة الإسلام حول تفضيل فلسفة الشرق أم فلسفة الغرب:

### 1 - البيروني بين الفلسفة الغربية وحكمة طريق الحرير: [طريق الحرير معكوساً]

أبو الريحان البيروني ابن خوارزم؛ والبيروني تعني بلغة أهل خوارزم «الغريب»، ترعرع البيروني في خوارزم ما بين بحر خوارزم (آرال) وبحر قزوين إلى الغرب، وهناك عاش البيروني النصف الأول من حياته. واشتهرت في خوارزم آنذاك مدينتان: كات والجرجانية إلى الشمال، وتقعان على نهر أموداريا، وتعرفان اليوم باسمي كيفا (خيفا / خيوة التي تقع على نهر جيحون جنوب بحيرة آرال في إقليم خوارزم، وهي التي أنجبت الخوارزمي، وجار الله الزمخشري، وهي تقع على طرق المواصلات المعروفة بطريق الحرير، وتقع الآن في دولة أوزبكستان) وأورغنج. ويقول ياقوت عن خوارزم: أهلها علماء فقهاء أذكفاء أغنياء فهي لعمري بلاد طيبة فيهم جلد وقوة غالب عليهم الطول والضخامة وفي رؤوسهم عرض ولهم جيهاث واسعة، مرونا على القناعة بالشيء اليسير (والمترفون مثل الفقراء)، وهم ذو تعلق شديد بوطنهم.

ويقول لنا المقرئ أيضاً: «الجرجانية مدينة عجيبة؛ إذ كل أهلها أجناد حتى البقال والقصاب والخباز والحائك، وأهلها أهل الصناعات الدقيقة، يغلب عليهم ممارسة علم الكلام في الأسواق والدروب، يناظرون بلا تعصب، وينكرون من أحدث ذلك، قائلين: (ليس لك إلا الغلبة بالحجة)».

وعاش البيروني أيضاً في جرجان (إيران) على بحر قزوين، وهي مدينة حسنة على وادٍ عظيم، سهلية، جبلية، بحرية، بها أودية هائلة، وجبال عالية، إذا غدا القنّاص راح بما اشتهى».

وقضى البيروني مدة كبيرة من حياته في غزنة (أفغانستان)، وكان من معاصريه ابن يونس (متوفى 1009م) عبقرى الفلك وحساب المثلثات، ابتكر الرقاص الكروي، ويستعمل مقياساً للزمن. وكذلك ابن الهيثم نابغة الرياضيات والفيزياء ومطور علم البصريات، والعدسات. وهناك علي بن عيسى أشهر جراح ومصنف في حقل البصر والعيون. ولا ننسى الفيلسوف الطبيب ابن سينا. كان قد اشتهر عند العرب - بالاستناد إلى تجار الحرير على أغلب الظن - أن أهل الهند «أهل فلسفة»، وقد ذكر هذا سليمان التاجر في رحلته مرتين:

**قضى البيروني مدة كبيرة من حياته في غزنة (أفغانستان)، وكان من معاصريه ابن يونس (متوفى 1009م) عبقرى الفلك وحساب المثلثات، ابتكر الرقاص الكروي، ويستعمل مقياساً للزمن.**

- مرةً في إطار المقارنة بين أهل الهند وأهل الصين؛ إذ يقول: «والطب بالهند والفلسفة، ولأهل الصين أيضاً طب، وأكثر طبهم الكي» [وهو يقر لأهل الصين بأنهم: «من أحذق خلق الله كفا في نقش وصناعة، وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم»].

- ومرةً أخرى في حديثه عن الهند خاصة؛ حيث قال: «وللهند عبّاد وأهل علم يعرفون بالبرهمة، وشعراء يغشون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان...»<sup>1</sup>.

وقد انتدب البيروني نفسه لاستقصاء أمر فلسفة الهند هذه، فهو يريد أن يقارن بين مذاهب الهند ومذاهب فلاسفة اليونان، ويتحقق من دعوى أن للهند فلسفة تفوق فلسفة اليونان؛ ولهذا أنت تراه يفتح كتابه هذا بوضع «أخلاقيات المقارنة» بالقول التالي:

«إنّما صدق قول القائل: «ليس الخبر كالعيان»؛ لأنّ العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر؛ لقصورهما على الوجود

1 - سليمان السيرافي: رحلة السيرافي إلى الهند والصين واليابان وأندونيسية (سنة 227هـ/851م)، تحقيق: علي البصري، دار الوراق، لندن، الطبعة الأولى 2016، ص 61.

الذي لا يتعدى آنات الزّمان، وتناول الخبر إيّاها وما قبلها من ماضي الأزمنة، وبعدها من مقبليها، حتّى يعمّ الخبر لذلك الموجود والمعدوم معاً. والكتابة نوع من أنواعه يكاد أن يكون أشرف من غيره، فمن أين لنا العلم بأخبار الأمم لولا خwald آثار القلم!<sup>1</sup>

ثمّ إنّ الخبر عن الشيء الممكن الوجود في العادة الجارية يقابل الصدق والكذب على صورة واحدة، وكلاهما لاحقان به من جهة المخبرين؛ لتفاوت الهمم وغلبة الهراش<sup>1</sup> والنزاع على الأمم. فمن مخبرٍ عن أمرٍ كذبٍ يقصد فيه نفسه، فيعظّم به جنسه؛ لأنّها تحته، أو يقصدها فيزري بخلاف جنسه؛ لفوزه فيه بإرادته. ومعلومٌ أنّ كلا هذين من دواعي الشهوة والغضب المذمومين. ومن مخبرٍ عن كذبٍ في طبقةٍ يحبّهم لشُكرٍ أو ييغضهم لنُكرٍ، وهو مقارب للأوّل؛ فإنّ الباعث على فعله من دواعي المحبّة والغلبة. ومن مخبرٍ عنه متقرباً إلى خير بدناءة الطبع، أو متقياً لشُرٍّ من فشل وفزع. ومن مخبرٍ عنه طباعاً كأنّه محمول عليه، غير متمكّن من غيره وذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابئ الطبيعة. ومن مخبرٍ عنه جهلاً، وهو المقلد للمخبرين وإن كثروا جملة، أو تواتروا فرقة بعد فرقة، فهو وهّمٌ وسائطٌ فيما بين السامع وبين المتعمّد الأوّل، فإذا أسقطوا عن البين بقي ذاك الأوّل أحد من عددناه من المتخرّصين. والمجانب للكذب المتمسك بالصدق هو المحمود الممدوح عند الكاذب فضلاً عن غيره».

إلى أن يقول: وكان وقع المثال في فحوى الكلام على أديان الهند ومذاهبهم، فأشرت إلى أنّ أكثرها [مما] هو مسطور في الكتب هو منحول، وبعضها عن بعض منقول وملقوت مخلوط، غير مهذب على رأيهم ولا مشدّب، فما وجدت من أصحاب كتب المقالات أحداً قصد الحكاية المجرّدة من غير ميل ولا مدهانة سوى أبي العباس الإيرانشهرّي، إن لم يكن من جميع الأديان في شيء، بل كان منفرداً بمخترع له يدعو إليه، ولقد أحسن في حكاية ما عليه اليهود والنصارى وما يتضمّنه التوراة والإنجيل، وبالغ في ذكر المانويّة وما في كتبهم من خبر الملل

1 - الهراش: تقاض الكلاب.

المنقرضة، وحين بلغ فرقة الهند والشمنيّة صاف<sup>1</sup> سهّمه عن الهدف وطاش في آخره إلى كتاب زرقان ونقل ما فيه إلى كتابه، وما لم ينقل منه فكأنّه مسموع من عوامّ هاتين الطائفتين، ولما أعاد الأستاذ - أيّده الله - مطالعة الكتب، ووجد الأمر فيها على الصّورة المتقدّمة؛ حرص على تحرير ما عرفته من جهتهم؛ ليكون نصرة لمن أراد مناقضتهم وذخيرة لمن رام مخالطتهم، وسأل ذلك ففعلته غير باهت على الخصم، ولا متحرّج عن حكاية كلامه، وإن باين الحقّ واستنطق سماعه عند أهله؛ فهو اعتقاده وهو أبصر به. وليس الكتابُ كتابَ حجاج وجدل حتّى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائغ منهم عن الحقّ؛ وإنّما هو كتاب

**إنّ اليونانيين أيّام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصّهم في النظر قريب من خاصّهم، وعامّهم في عبادة الأصنام كعامّهم، ولهذا أسّشهد من كلام بعضهم على بعض - البيروني**

حكاية، فأورد كلام الهند على وجهه، وأضيف إليه ما لليونانيّين من مثله لتعريف المقاربة بينهم، فإنّ فلاسفتهم وإن تحرّروا التّحقيق فإنّهم لم يخرجوا فيما اتّصل بعوامّهم عن رموز نحلّتهم وموضعات ناموسهم، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم، إلّا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى؛ لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتّحاد، وكنت نقلت إلى العربيّ كتابين أحدهما في المبادئ وصفة الموجودات، واسمه «سانك»، والآخر في تخليص النفس من رباط البدن ويعرف (بياتنجل) وفيهما

أكثر الأصول التي عليها مدار اعتقادهم دون فروع شرائعهم، وأرجو أنّ هذا ينوب عنهما وعن غيرهما في التقرير ويؤدّي إلى الإحاطة بالمطلوب بمشيئة الله.

وتخلص المقارنة إلى بيان تفوق الفلاسفة الإغريق، وأنّ الهنود ليسوا

على شيء:

«إنّ اليونانيين أيّام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة، خاصّهم في النظر قريب من خاصّهم، وعامّهم في عبادة الأصنام كعامّهم، ولهذا أسّشهد من كلام بعضهم على بعض؛ بسبب الاتّفاق

1 - صاف السهم عن الهدف: عدل عنه.

وتقارب الأمرين لا التصحيح فإنّ ما عدا الحقّ زائغ والكفر ملّة واحدة من أجل الانحراف عنه، ولكنّ اليونانيّين فازوا بالفلاسفة الذين كانوا في ناحيتهم، حتى نقّحوا لهم الأصول الخاصة دون العامّة لأنّ قصارى الخواصّ اتباع البحث والنظر، وقصارى العوامّ التهوّر واللجاج إذا خلوا عن الخوف والرهبّة، يدلّ على ذلك سقراط لمّا خالف في عبادة الأوثان عامّة قومه، وانحرف عن تسمية الكواكب «ألّهة» في لفظه، كيف أطبق قضاة أهل اثينية الأحد عشر على الفتيا بقتله دون الثاني عشر حتى قضى نحبه غير راجع عن الحقّ؛ ولم يكُ للهند أمثالهم ممّن يهذبّ العلوم، فلا تكاد تجد لذلك لهم خاصّ كلام، إلا في غاية الاضطراب، وسوء النظام، ومشوباً في آخره خرافات العوامّ، من تكثير العدد وتمديد المدد، ومن موضوعات النحلة التي يستفزع أهلها فيها المخالفة، ولأجله يستولي التقليد عليهم وبسببه أقول فيما هو بآبتي<sup>1</sup> منهم أنّي لا أشبه ما في كتبهم من الحساب ونوع التعاليم إلا بصدف مخلوط بخزف، أو بدرّ ممزوج ببغّر، أو بمهى<sup>2</sup> مقطوب<sup>3</sup> بحصى، والجنسان عندهم سيّان؛ إذ لا مثال لهم لمعارج البرهان».

## 2 - ابن سينا: من الحكمة المشائية [اليونانية] إلى الحكمة المشرقية أو [طريق الحرير مسلوفاً]

إذا كان أبو الريحان البيروني قد اعترف بتفوق حكمة المغرب [اليونان] على حكمة المشرق [الهند]؛ فإنّ أبا علي بن سينا سلك الطريق المضاد؛ لقد عمل على تشجيع الحكمة المشرقية - الغنوصية - ضد الحكمة اليونانية المغربية. وهو فيلسوف سلك في أطوار حياته طريق الحرير معكوساً: من همدان إلى أصفهان، فالاعتقال بفردجان التي أنهى بها - وهو في طريقه - «كتاب الشفاء». وكان قد وُلد بقريّة Afshana بنواحي بخارى. وقد ألّف مؤلفاته الأولى ببخارى (قرب سمرقند، وفي أيامنا هذه تقع على طريق

1 - البآبة عن العرب: الوجه الذي أريده.

2 - المَهَا: البلور، وقيل: الدُرّ.

3 - مقطوب: ممزوج.

الحرير بأوزبكستان)؛ مثل كتابه «الحكمة العروضية» وكتاب «الحاصل والمحصل» وكتاب «البر والإثم»، ثم انتقل إلى Gurganj [أوزباكستان]، وهناك ترأس مع البيروني مراسلات علمية مهمة حُفظت لنا، ثم انتقل إلى جرجان (بلاد فارس)، حيث كتب بعض أهم كتبه؛ ككتاب «المبدأ والمعاد» و«حال النفس الإنسانية»، ثم شرع في تدوين كتابه الأكبر في الطب «القانون في الطب». وبعد إقامة قصيرة بالري سكن همذان وأصفهان حيث أكمل بالأولى كتابه في الطب، وشرع في «كتاب الشفاء»، كما ألّف كتاب «عيون الحكمة» و«كتاب الهداية». وفي المدينة الثانية أنهى «الشفاء» وكتب

«النجاة» و«الحكمة المشرقية» و«الإشارات والتنبهات» و«كتاب الإنصاف». وقد مات في حملة على همذان، حيث دُفن هناك. فكل ما ألّفه ألّفه على طريق الحرير.

يقول في مقدمة كتابه: «منطق المشرقيين» الذي يُعدُّ مدخلاً إلى الحكمة الشرقية:

«وبعد، فقد نزعنا الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلف، ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما ألّفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم، ولما سمع منا

في كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم، ولم ينل رحمته سواهم، مع اعتراف منا بفضل سلفهم في تنبئه لما نام عنه ذووه وأستأذوه، وفي تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض، وفي ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه، وفي إدراكه الحق في كثير من الأشياء، وفي تفتنه لأصول صحيحة سرّية في أكثر العلوم، وفي إطلاعه الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مد يديه إلى تمييز مخلوط، وتهذيب مفسد، ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ويرموا ثلماً يجدونه فيما بناه، ويفرعوا أصولاً أعطاهما، فما قدر من

**إذا كان أبو الريحان البيروني قد اعترف بتفوق حكمة المغرب [اليونان] على حكمة المشرق [الهند]؛ فإن أبا علي بن سينا سلك الطريق المضاد؛ لقد عمل على تشجيع الحكمة المشرقية - الغنوصية - ضد الحكمة اليونانية المغربية.**



بعده على أن يفرغ نفسه عن عهدة ما ورثه منه، وذهب عُمره في تفهّم ما أحسن فيه، والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره فهو مشغول عمره بما سلف، ليس له مهلة يراجع فيها عقله، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى مزيدٍ عليه، أو إصلاح له، أو تنقيح إياه.

وأما نحن فسَهْلٌ علينا التفهّمُ لما قالوه أول ما اشتغلنا به، ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علومٌ، وكان الزمان الذي اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه، ثم قابلنا جميع ذلك بالتمط من العلم الذي يسميه اليونانيون المنطق، ولا يبعد أن يكون له عند المشرقين اسم غيره حرفاً حرفاً، فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى، وطلبنا لكل شيء وجهه، فحق ما حق وزاف ما زاف.

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتزاء<sup>1</sup> إلى المشائين من اليونانيين كرهنا شقَّ العصا ومخالفة الجمهور، فأنحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين؛ إذ كانوا أولى فرقهم بالتعصب لهم، وأكملنا ما أرادوه وقصروا فيه، ولم يبلغوا أربهم منه، وأغضينا عما تخطوا فيه، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً، ونحن بدخلته شاعرون، وعلى ظله واقفون، فإن جاهرنا بمخالفتهم ففي الشيء الذي لم يمكن الصبر عليه، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل، فمن جملة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهّال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة، بحيث لا يشكّون فيه ويشكون في النهار الواضح وبعضه قد كان من الدقة بحيث تعمش عنه عيون عقول هؤلاء الذين في العصر فقد بلينا برفقة منهم عاري الفهم كأنهم حُشْبُ مُسَنِّدة، يرون التعمق في النظر بدعةً، ومخالفة المشهور ضلالة؛ كأنهم الحنابلة في كتب الحديث، لو وجدنا منهم رشيداً ثبتناه بما حققناه، فكنا نفعهم به، وربما تسنى لهم الإيغال في معناه، ففوضونا منفعة استبدوا بالتنفير عنها.

ومن جملة ما ضننا بإعلانه - عابرين عليه - حقّ مغفولٌ عنه يشار إليه

1 - الاعتزاء: الانتماء.

فلا يتلقى إلا بالتعصب، فلذلك جرينا في كثير مما نحن خبراء ببيجْدَتِهِ<sup>1</sup> مجرى المساعدة دون المحافة، ولو كان ما انكشف لنا أول ما انصَبْنَا إلى هذا الشأن لم نبد فيه مراجعات منا لأنفسنا، ومعاودات من نظرنا، لما تبيَّنَا فيه رأياً ولا اختلط علينا الرأي، وسرى في عقائدنا الشك، وقلنا: لعل وعسى. لكنكم أصحابنا تعلمون حالنا في أول أمرنا وآخره، وطول المدة التي بين حُكْمنا الأول والثاني. وإذا وجدنا صورتنا، هذه فبالحري أن نثق بأكثر ما قضيناه، وحكمنا به واستدركناه، ولا سيما في الأشياء التي هي الأغراض الكبرى، والغايات القصوى، التي اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات، ولما كانت الصورة هذه، والقضية

**انبرت جماعة من  
الفلاسفة إلى فضِّ نزاع  
تعصب بعض الفلاسفة  
المسلمين إما إلى الفلسفة  
الشرقية أو إلى الفلسفة  
الغربية، فكان لهم رأي  
يقبل بالتعدد والاختلاف،  
ولا يقول بالتفاضل بين  
الأمم أو بين فلسفاتهما.**

على هذه الجملة؛ أحببنا أن نجمع كتاباً يحتوي على أمهات العلم الحق الذي استنبطه مَنْ نَظَرَ كثيراً، وفكّر ملياً، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً، واجتهد في التعصب لكثير فيما يخالفه الحق فوجد لتعصبه وما يقوله وفاقاً عند الجماعة غير نفسه، ولا أحق بالإصغاء إليه من التعصب لطائفة إذا أخذ يصدق عليهم فإنه لا ينجيهم من العيوب إلا الصدق. وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا؛ أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا، وأما العامة من مزاولي هذا الشأن فقد أعطيناهم في كتاب الشفاء ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم وسنعطيهم في اللواحق ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه، وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده».

### الفصل في النزاع بين أمم طريق الحرير وغيرهم:

انبرت جماعة من الفلاسفة إلى فضِّ نزاع تعصب بعض الفلاسفة المسلمين إما إلى الفلسفة الشرقية أو إلى الفلسفة الغربية، فكان لهم رأي يقبل بالتعدد والاختلاف، ولا يقول بالتفاضل بين الأمم أو بين فلسفاتهما:

1 - تقول العرب: عنده بيجْدَة ذلك: أي: عند علم ذلك.



## 1 - أبو الخطاب الصابئ الفيلسوف الكاتب: التغني بالاختلاف والتنوع

على خلاف تعصب البيروني لطريق الحرير الفلسفي المعكوس (اليونان ضد الهند)، وتعصب ابن سينا لطريق الحرير السلوك (المشرق ضد المغرب)؛ فإننا نجد من مفكري وفلاسفة الإسلام مَنْ أَنْصَفَ حضارة طريق الحرير في تنوعها واختلافها. ومنهم الفيلسوف الكَتَّاب أبو الخطاب الصابئ الذي نقل صاحب كتاب «صوان الحكمة» رأيه في هذا الشأن:

«ولا سبيل إلى اتفاق الناس في حالٍ من الأحوال، ولا سبيلٍ من السُّبُل. ولو أمكن ذلك لُوَجِدَ؛ ألا ترى أنه لا يمكن أن يكون الناس كلهم طوال القدود أو قصارها، وضخام الرؤوس أو صغارها، أو فصحاء الألسنة أو كُنْهًا، أو على مذهب واحد ومقالة واحدة؟! فعلى هذا كل أحد ينتحل ما شاكه [= شاكل] مزاجه، ونبض إليه عِرْفُهُ، ونزع إليه شَوْفُهُ، وعجن، به طِينُهُ، وجرى به بعد ذلك دَأْبُهُ وديئُهُ». [أبو سليمان السجستاني المنطقي: صوان الحكمة، سلسلة تاريخ الفلاسفة والحكماء العرب قديماً وحديثاً، العدد 1، دار بيبليون، باريس، 2007، ص 344].

## 2 - أبو سعيد السيرافي [من سيراف التي كانت أيضاً محطة في طريق الحرير]

في المناظرة التي جمعت أبا سعيد السيرافي بمتى المنطقي تعصب هذا الأخير لليونان، فما كان من أبي سعيد إلا أن رد عليه بأن كل الأمم تصيب وتخطئ، ولا توجد أمة تحتكر قول الحقيقة، فلا أمة من أمم طريق الحرير وغيرها معصومة من الخطأ، ولا أمة محكوم عليها بالأ تدرِك الحقيقة أو تحرم منها أو تعدم قولها:

«فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونانُ معروفةً من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفظنة الظاهرة، والبنية المخالفة، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدروا، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا، وأن السكينة نزلت عليهم، والحقّ تكفّل بهم، والخطأ تبرّأ منهم، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والرذائل بُعِدَت من جواهرهم وعروقهم، وهذا جهلٌ ممّن يظنّه بهم، وعِنَادٌ ممّن يدّعيه لهم، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في

أشياء ويخطئون في أشياء، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء، ويصدّقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسيّئون في أحوال، وليس واضح المنطق يونان بأسرها؛ إنما هو رجل منهم، وقد أخذ عمّن قبله، كما أخذ عنه من بعده، وليس هو حجّة على هذا الخلق الكثير والجَمّ الغفير، وله مخالفون منهم ومن غيرهم، ومع هذا فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سنخٌ<sup>1</sup> وطبيعة».

### 3 - أبو حيان التوحيدي: الفضائل والردائل موجودة في كل الأمم

لكل أمة فضائل وردائل،  
ولكل قوم محاسن  
ومساوي، ولكل طائفة  
من الناس في صناعتها  
وحلّها وعقدها كمالٌ  
وتقصير، وهذا يقضي  
بأنّ الخيرات والفضائل  
والشرور والنقائص  
مفاضة على جميع الخلق،  
مفضوطة بين كلهم.

«لكل أمة فضائل وردائل، ولكل قوم محاسن ومساوي، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدها كمالٌ وتقصير، وهذا يقضي بأنّ الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوطة بين كلهم... فقد بان بهذا الكشف أنّ الأمم كلّها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة، واختيار الفكرة. ولم يكن بعد ذلك إلّا ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابيّة، والعادة المنشئيّة والهوى الغالب من النّفس الغضبيّة، والنّزاع الهائج من القوّة الشهويّة».

### الكلام عن الحرير في كتابات فلاسفة الإسلام:

فصل الفقهاء القول في مسألة الحرير في اللباس والصلاة والركوب والإحرام والافتراش والتدثّر بالنسبة إلى الرجال والنساء، فأفتوا فيه بفتاوى مشهورة، لكن كان للفلاسفة مقارنة أخرى لمسألة الحرير. وهي المقاربة الأنثربولوجية [الخاصة بعلم الإنسان] والمقاربة الطبية النفسية.

1 - السّخ: أصل كل شي.



## 1 - إخوان الصفا: لباس الحرير جزءً من ماهية الإنسان:

وقد ذهب إخوان الصفا - وهم جماعة من الفلاسفة المستترين - في رسائلهم إلى جعل لباس الحرير سمة يُعرف بها الإنسان ويتميّز عن الحيوان. ففي «رسالة تداعي الحيوان؛ على الإنسان» يورد إخوان الصفا على لسان إنسي عراقي يترافع أمام ملك الجن ضد الحيوانات؛ ويؤكد تفوق الإنسان على الحيوان واستحقاقه استملاكها واستسجارها، فيقول:

«الحمدُ لله خالق الخلق، وباسط الرزق، وسابغ النعم، الذي أكرمنا وأنعم علينا في البرِّ والبحر، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، نعم أيها الملك، لنا خصال آخر ومناقب ومواهب وكرامات تدلُّ على أننا أرباب لهم، وهم عبيد لنا. فمن ذلك حُسْنُ لباسنا، ولين ثيابنا، وستر عوراتنا، ووطء فرشنا، ونعومة دثارنا، ودفاء غطاءنا، ومحاسن زينتنا من الحرير والديباج والخز والقز والقطن والكتان، والسمور والسَّنجاب وألوان الفراء، والأكسية من البسط والأنطاع والمخاد والفرش واللبود والبربولي وما شاكلها، مما لا يُعدُّ كثرتة. وكلُّ هذه المواهب دليل على ما قلنا بأننا أرباب لهم [= للحيوانات]، وهم عبيد لنا. وخشونة لباسها، وغلظ جلودها، وسماجة دثارها، وكشف عوراتها دليل على أنها عبيد لنا، ونحن أربابها وملاكها، ولنا أن نحتكم فيها بحكم الأرباب، ونتصرّف فيها تصرف الملاك».

ويحاج الصّرصر - وهو الناطق باسم الهوام - ضد الإنسان مبرزاً محبة الإنسان لبس الحرير مع أن ذوبية صغيرة لها فضل إنتاجه، فيقول:

«وقد جعل الله تعالى في جبلة نفوس الإنس محبة لبس الحرير والديباج والإبريسم، وما يتّخذ منها من اللباس الحسن الذي هو كله من لعاب هذه الدودة الصغيرة الجثة، الضعيفة البنية، الشريفة النفس؛ وجعل في ذوقهم الذِّدَّ ما يأكلون العسل الذي هو بصاق أضعف الحيوانات الصغيرة الجثة، الشريفة النفس؛ ليكون دلالة على حكمة الصانع الخالق الحكيم، ليزدادوا به معرفة، ولنعمائه شكراً، وفي مصنوعاته فكرة واعتباراً، ثم هم مع هذه كلها معرضون غافلون ساهون لاهون طاغون باغون، وفي طفيانهم يترددون، لإنعامه كافرون،

ولآلائه جاحدون، ولصنعته منكرون، وعلى ضعفاء الخلق مفتخرون متعدّون جاثرون ظالمون».

ويذكر إخوان الصفا قوى النفس البشرية، وكيف تعمل، ولا يجدون ما يشبهون به عملها سوى صناعة الحرير، فيقولون:

«وأفعالها [= أفعال قوى النفس] في حلقة الغشاوات التي في العينين تشبه أفعال الذين ينسجون الحرير والرقيق من الثياب».

## 2 - أبو الريحان البيروني: استعارة الحرير

يذكر أبو الريحان البيروني في كتاب: «تحقيق ما للهند من مقولة معقولة أو مردولة» مسألة العلاقة بين النفس والجسد عند الهنود، ويشبه ذلك بعمل صانع الحرير، فيقول:

«سأل السائل في خاتمة كتاب «باتنجل» عن كيفية الخلاص؟ فقال المجيب: إن شئت فقل: هو تعطل القوى الثلاث وعودها إلى المعدن الذي صدرت عنه، وإن شئت فقل هو رجوع النفس عالمة إلى طباعها؛ وقد اختلف الرجلان فيمن حصلت له رتبة الخلاص، فسأل الناسك في كتاب

**سأل السائل في خاتمة كتاب «باتنجل» عن كيفية الخلاص؟ فقال المجيب: إن شئت فقل: هو تعطل القوى الثلاث وعودها إلى المعدن الذي صدرت عنه، وإن شئت فقل هو رجوع النفس عالمة إلى طباعها؛ وقد اختلف الرجلان فيمن حصلت له رتبة الخلاص.**

«سانك» لِمَ لا يكون الموت عند انقطاع الفعل؟ قال الحكيم: من أجل أنّ الموجب للانفصال حالة نفسانية، والروح بعد في البدن، ولا يفرّق بينهما إلاّ حال طبيعيّ مفرّق للالتئام، وربّما بقي التأثير بعد زوال المؤثر مدّة يفتر فيها ويتراجع إلى أن يفنى؛ مثل الحرّار الذي يدير دوّارته بخشبة حتى يحتدّ دورانها ثمّ يتركها، وليست تسكن مع إزالة الخشبة المديرة عنها، وإنّما يفتر حركتها قليلاً قليلاً إلى أن تبطل، فكذلك البدن بعد ارتفاع الفعل يبقى فيه الأثر حتى ينصرف في الشدّة والراحة إلى انقطاع القوّة الطبيعية وفناء الأثر المتقدّم، فيكون كمال الخلاص عند انجدال البدن».



### 3 - أبو علي بن سينا: الحرير من الأدوية المفرّحة

يجد ابن سينا للحرير فوائد طبية. وهو يتحدّث في كتابه «القانون في الطب» عن الفوائد العلاجية النفسية للحرير - الإبرسيم - فيقول:  
«إبرسيم:

الماهية: هو الحرير وهو من المفرّحات القلبية.

الطبع: حار في الأولى يابس فيها.

الاختيار: أفضله الخام منه، وقد يستعمل المطبوخ إذا لم يكن قد صبغ، والمقزز أولى من المحرق.

الأفعال والخواص: فيه تلطيف ونشف وتفريح بخاصية فيه.

أعضاء الغذاء: ينفع لصلابة الرئة بمرارته وتديغه؛ وذلك لتلطيفه وتنشيفه من غير لذع ويبوسته المعتدلة، وليس يختصّ منه نوع.

أعضاء البصر: إذا اتخذ منه كحللاً نفع، ومنع الدمعة ونشف القروح التي في العين لمناسبتها في تسميته، ويعدل اليبس من جهة اعتدال مراجه، وإنه من أدوية تقوية الروح والمعدة على تصرّف الغذاء، وهذا بلا وزن».

ويصف كذلك الحرير علاجاً من داء القمل والصيبان، فيقول في هذا الباب:

#### «فصل في القمل والصيبان:

المادة الرطبة التي فيها حرارة ما أو معها حرارة ما، إذا اندفعت إلى الجلد فربما كانت من الرقة واللطف بحيث تتحلّل، ولا تحسّ بها، ويليها ما يتحلل عرقاً، ويليها ما يتحلل فينعدد وسخاً، ويليها ما يحتبس في أعلى طبقات الجلد، ويتولد منها مثل الحزاز والحصف ونحوهما، ويليها ما يحتبس أغور من ذلك. فإن كانت رديئة جداً فعلت مثل داء الثعلب ونحوه، والقوباء والسعفة، وإن كانت أقل رداءة ولم تكن فيها قوة صديدية، ولا أسرعت إليها العفونة المستعجلة البالغة، وصلحت لأن تكون مادة تقبل الحياة فاض عليها الحياة من واهبها، فحدث القمل وتحرك وخرج، وربما حدث منه الكبير دفعة. وقد يُعين على تولّد القمل أغذية جيدة الكيموس رقيقته متحركة إلى الظاهر

كالتين، ويعيّن عليه حركات محرّكة لذلك، ولا سيما إذا صحبه بخار من المنى المتولد مثل الجماع، وقد يعيّن عليه ترك الاستنظاف والغسل، واستعمال ما يفتح مسام الجلد، ويحرك المواد المحتبسة فيه إلى التحلل، أو يدخل إليها النسيم المانع إياها عن الاستحالات العفنية، والشبيهة بالعفنية، وقد يغلب القمل حتى ينزف صاحبه، ويصفر لونه وتسقط شهوته، وينحف بدنه، وتحلّ قوته.

**العلاج:** القمل الكثير المتولّد غير المنقطع النسل يحتاج في علاجه أولاً إلى تنقية البدن، وخصوصاً بالفصد وإصلاح التدبير، وترك ما يحرك

يعود ابن سينا في كتابه «الأدوية القلبية» إلى الحديث عن الأدوية التي تُفَرِّحُ؛ أي تدخل الفرج والبهجة على النفوس الكئيبة، فيذكر منها ما يعمل على «تنوير» الروح أو «تسطيعها» وهو الإبريسم، بمعنى الفاخر من الحرير.

المواد إلى خارج مما ذكرناه، ثم تستعمل الأدوية الموضعية، وتنفعه إدامة الاستحمام، والاستنظاف، وأن يديم الاستحمام بالماء المالح، ثم بالماء العذب، فهو أجود. ويجب أن يديم تبديل الثياب، ولبس الحرير والكتان، وقد يشرب أدوية فتقتل القمل مثل الثوم بطبخ الفودنج الجبلي».

وفي شرح الفيلسوف الأندلسي أبي الوليد بن رشد على أرجوزة ابن سينا الطبية نجده يذكر رأياً لابن سينا يخص لباس الحرير ويشرحه، فيقول:

«والحر في الحرير والأقطان والبرد في المصقول والكتان

يقول: وثياب الحرير والقطن هي حارة، والثياب المصقولة وثياب الكتان باردة، أما سخونة ثياب الحرير والقطن فلسخونة الحرير والقطن بالإضافة إلى بدن الإنسان، وأما برد الثياب المصقولة فلقلة الزئبر الذي فيها، لأن الزئبر هو سبب السخونة بلصوقه بالبدن، وأما الكتان فمزاجه معتدل».

ويعود ابن سينا في كتابه «الأدوية القلبية» إلى الحديث عن الأدوية التي تُفَرِّحُ؛ أي تدخل الفرج والبهجة على النفوس الكئيبة، فيذكر منها ما يعمل على «تنوير» الروح أو «تسطيعها» وهو الإبريسم، بمعنى الفاخر من الحرير،



ويبرر صفة الحرير النفسية العلاجية - من الأدوية المضرحة - «بما فيه من الشَّفِّ». فالنفسية المصابة بالاكْتئاب تحب النظر إلى الأشياء الشفافة مثل اللؤلؤ والحرير<sup>1</sup>.

الختام يذكّرنا طريق الحرير بثورة الورق والتي جاءت من صناعة الكاغد من الصينيين الذين أسرهم هارون الرشيد، وثورة الورق تعد المرحلة المعرفية الثانية بعد الأبجدية، وتلتها مِنْ نَمَّ الطباعة، إلى الثورة الرقمية العلمية فبين احضان هذه المدن حفظ الورق، متون الكتابات الإسلامية على مدار قرون، وهذه المدن في طريق الحرير كانت بمثابة وادي السليكون الآن، وما بين مدن الحرير والسليكون نعيش فضاء التاريخ.

1 - [ابن سينا: من مؤلفات ابن سينا الطبية، رسالة في الأدوية القلبية، تحقيق محمد زهير البابا، جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي/ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - معهد المخطوطات العربية، سلسلة: مصادر ودراسات في تاريخ الطب العربي، العدد: 5، 1984م، ص 242].